◆ تأثير ابن خلدون فى أسلوبنا المعاصر

إذا قرأت كتابًا أندلسيًا وجدته يتحدث عن ابن خلدون عَلَمًا من أعلام الفكر الأندلسى ، وإذا قرأت تاريخ الأدب المصرى فى عصر المماليك وجدت الحديث عن ابن خلدون قطبًا من الأقطاب بوادى النيل ، وإذا ألممت بالحركة الفكرية فى المغرب شاهدت ابن خلدون قائدًا من كبار قادتها فى تونس ، وذلك يؤكد منزلة هذا العملاق فى الفكر العربى ، وحرص كل قطر من الأقطار على فخر انتمائه ، ونحن هنا نتابع الأستاذ أحمد أمين فى عَدِّهِ أندلسيًّا ، لأنه كما قال فى ظُهر الإسلام[1] من أصل أندلسى بأشبيلية ، وهو وإنْ وُلد فى تونس فقد درس على علماء أندلسيين ، وأقام بالأندلس زمنًا من أحفل حياته ، والأندلس به أَوْلَى ، وقد عاش بمصر غريبًا فى زيّه ولهجته وطباعه ، حتى إذا وفد مع علمائها على «تيمور لنك» قارن بينه وبينهم فى المظهر واللهجة ، ولولا مخالفته إياهم فى مرأى العين ما لفت نظر الطاغية التترى ، لأن الحديث كان جماعيًّا عن طريق الترجمان ، وهو مما يؤكد أن الرجل لم يتمصر فيكسبه المشرق !

على أننا نتحدث عنه الآن لنبرز أثره القوى فى نهضة مصر الأدبية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ولك أن تعجب معى كيف عاش ابن خلدون فى

(١) ظهر الإسلام ج ٣ ص ٢٢٥ .

القاهرة ، وشَرَحَ العلم بالأزهر ، وتولى قضاء المالكية عدة مرات ، وتنقل فى شتى مدنها ليرعى شئون منصبه ، ويجنى حصاد أوقافه ، ثم لا يؤثر ذلك فى حياته تأثيرًا ذا بال ، حتى إذا أمضت القرون وأقبل عصر البعث كانت مقدمة ابن خلدون صاحبة التأثير الرنان ، فتضع للكُتَّاب أسلوبًا جديدًا ، وللكتابة منهجًا واضح الأغراض . لقد مكث الأستاذ الكبير المغفور له الشيخ أحمد الإسكندرى أستاذًا للأدب العربى ثلاثين عامًا بدار العلوم ، وهو فى كل عام من أعوامه الثلاثين يملى على طلابه هذه الفقرات من مذكرته الشهيرة عن الأدب العباسى[1] :

«كان ابن خلدون أحد نوابغ العالم الذين عاشوا أفذاذًا فى عصور مظلمة لم يعضدهم فيها مشاكل ، أو تعرف قدرهم أُمتهم ، فكانت حياتهم بين الأمة التى عاشوا فيها كلها شقاء ومحنة ، فقد أداه نفوذ خاطره وصدق نظره إلى الاهتداء إلى كثير من علل الحوادث التى تنتاب الاجتماع البشرى ، وعرف ما بينها من الارتباط والتشابه ، حتى وقرت فى نفسه بصور قوانين عامة وأقيسة مطردة ، سال بها قلمه دون أن يفطن لها أهل قرنه ، ولم ينكشف سرها ويتضح للباحثين صدق انطباقها على سنن العمران والاجتماع إلا بعد انقضاء عدة قرون .

ولم يكن الانتفاع بمقدمته وأسلوب كتابته فيها فى وقت أظهر منه فى العصر الحاضر ، فقد كان أسلوب ابن خلدون المرسل ، المجرد عن تكلف البديع والمحسنات اللفظية فى تعبيره عن المباحث السياسية والعمرانية والاجتماعية والجغرافية والصناعية هو القدوة الحسنة للمصلحين والمجددين للنهضة الأدبية والعربية والسياسية من كُتَّاب العربية فى مصر والشام وتونس ، وخاصةً مَنْ ألف منهم فى مثل موضوعاته ، أو كتب فى الجرائد والمجلات ، لقلة المطبوع من الكتب ، ولأنه أرحب أسلوب أدبى علمى للنقلة والمترجمين عن اللغات الأجنبية المحافظين على أصل المعنى ، فهو كالأستاذ الأكبر لكتاب الصحف والمجلات فى نهضتنا الأخيرة» .

---

(١) الأدب العباسى للسكندرى ص ٢٣٣ .

هذا ما قاله أستاذنا السكندرى ونَقَلَهُ عنه تلميذه الباحث المفضال الأستاذ محمود رزق سليم فى المجلد السادس من موسوعته عن عصر المماليك ، ثم يقول تعقيبًا عليه[1] :

«ولا ريب فى أن أدباء النهضة تأثروا - إلى جانب ما تأثروا به - بآراء ابن خلدون ، ومنها آراؤه فى نثر معاصريه ، فكان لذلك أثر مضاعف جعلهم يتجهمون لأسلافهم وينظرون إليهم نظرة عابسة ، ويرمون أدبهم بالضعف والانحطاط ، ويتأبون على دراسته ، وإذا أخذوا فى دراسته أخذوا وآراء ابن خلدون مسلطة على عقولهم ، فيدرسونها وبأقلامهم لوثة من هذه الآراء ، وبدهى أن تأتى النتيجة وفق مقدماتها ، والأحكام رهن مقوماتها» .

وللدكتور على عبد الواحد وافى ملاحظة طريفة فى هذا المجال ، فقد رأى أن أخطاء ابن خلدون الأسلوبية فى المقدمة قد انتقلت أيضًا إلى أقلام كتابنا وكأنها صواب لا يقبل التصحيح ، مما يدل على الثقة المفرطة فى مقدرته ، والولوع الهائم باحتذائه . والدكتور يبسط بعض هذه الأخطاء حين يقول فى كتابه عن ابن خلدون[2] :

«ويلاحظ أن أسلوب ابن خلدون قد انتقل إلى كُتَّابنا بجميع ما فيه ، حتى بأخطائه نفسها ، فمن ذلك مثلاً التراكيب المخطئة الآتية : «لابد وأن» ، «لا يترك شيئًا إلا وأحصاه» ، «لم يقتصر على هذا ، بل وأخذ يعمل كيت وكيت» ، «وهذه الشروط تتوفر فى» ، «يوقفنا على كذا» ، «وهذا الأمر وإنْ كان كذا إلا أنه كيت وكيت» ، وإن كاتبًا يقبل منه الخطأ ويُحتذَى بدون مناقشة لذو سيطرة بعيدة النفوذ ! وإذا كان من المعقول أن نجعل صوابه دليلَ سَبْقِهِ ، فإن من الطريف هنا أن يكون خطؤه كذلك يتضمن هذا الدليل» .

ولإيضاح تأثير المقدمة فى النهضة الأدبية المعاصرة ، نذكر أنها طبعت لأول مرة بمصر سنة ١٨٥٧م ، وكانت الأذهان إذ ذاك متطلعة إلى عهد جديد تلوح تباشيره فيما

---

(١) عصر سلاطين المماليك ج ٦ ص ٢٣٥ للأستاذ محمود رزق سليم .

(٢) ابن خلدون (سلسلة أعلام العرب) للدكتور وافى ص ٢٤٨ .

أعقب احتكاك مصر بالحضارة الأوربية فى عصر إسماعيل ، ثم جاء جمال الدين الأفغانى لينشر أفكاره عن الاستقلال والحرية والكرامة ، ومحاربة الاستعمار والتجبر وحُكم الفرد ، مما يؤدى إلى فساد العمران - كما يقول ابن خلدون . وقد وجه الثائر الأفغانى تلاميذه إلى الكتابة السياسية فى محاربة الاستبداد والتجبر ، والنعى على الطغاة من المحتلين وصنائعهم من الحاكمين ، فاتجه الأدب العربى من ناحية المضمون وجهة جديدة بعد أن كان مقصورًا على المراسلات الإخوانية والأوصاف الإنشائية التى تقف عند الظواهر التافهة بدون أن تعمد إلى الدقة والتحليل ، وبدأ الأدب الاجتماعى المصلح والتفكير السياسى الثائر يأخذ طريقه إلى الأسماع مقلدًا أسلوب ابن خلدون فى ترتيب المقدمات واستخلاص النتائج ، ورصد الظواهر وتعليلها .

وإذا كان ابن خلدون قد تحدث فى مقدمته عن السياسة والملك ، وعاقبة الترف ، وأثر الظلم والاضطهاد ، وحُكم الفرد ، وعمر الدولة وأسباب فنائها وتدميرها ، وبغى السلطان ، ورياء الحاشية ، فإنه بذلك قد أمد تلاميذ جمال الدين بأكثر ما يبتغون ، وأضاف أفكارًا صائبة فى الحرية تسيل بها الأقلام فى أنهار الصحف موقظة داعية ، فوجد دعاة الثورة سبيلاً مقيدًا للقول ، فأفرغوا حماستهم فى اتجاهه ، أما من ناحية الشكل فقد انطلق أسلوب ابن خلدون مسترسلاً سمحًا بدون قيد بديعى أو حلية لفظية ، فقدم بذلك الأنموذج المختار لما يريده جمال الدين ، ومضى تلاميذه يحاكونه عذوبة واسترسالاً ، فتحرروا من إرهاق السجع والازدواج ، وكسروا قيود الجناس والطباق ، وساعدهم على هذا النهج المتحرر ما يذكو فى صدورهم من لهيب الحرية والعزة ، إذ إن الجذوة الملتهبة التى أذكاها جمال الدين فى نفوس تلاميذه - وهم صفوة الأدباء لعهده - كانت أعظم من أن يخمد شرارها تحت رماد التكلف اللفظى والعبث البديعى ، وما بقى لدينا من آثار جمال الدين - على عجمته - قريب من منهج ابن خلدون على عربيته فى السرد والاسترسال.

وإذا كان الأستاذ محمد عبده أَنْبَه تلاميذ الأفغانى ذِكْرًا ، وأصحَّهم فكرة ، وأقومهم طريقة ، فسنتخذ من أسلوبه دليلاً على تَأثير ابن خلدون فى الحركة الأدبية لعهده ، إذ

ننقل هنا أثرين موجزين من آثاره : أحدهما قد خطه الإمام فى مطلع شبابه قبل أن يقع علىأسلوب المقدمة ، وثانيهما مما كتبه الأستاذ بعد أن نضج فكره واستوى على سُوقه ، ونفحت عليه المقدمة الخلدونية من سدادها الصائب ما أحكم نَسْجه وأوثق عُراه .

كان الشيخ محمد عبده – لأول عهده بالكتابة – ينشر مقالاته بجريدة الأهرام ، فيهتم بالمقدمات الطويلة ، ويتناول الأغراض الثانوية ، ويحرص على الصبغ البديعى ، لا يشذ عن طريقة معاصريه ، متأثرًا بمشاهيرهم فى التنميق والتلفيق ، كأن يقول فى موضوع عن الكتابة والقلم سنة ١٨٧٦ : «ولما انتشر نوع الإنسان فى أقطار الأرض ، وبُعد ما بينهم فى الطول والعرض ، مع ما بينهم من المعاملات ، ومواثيق المعاقدات ، احتاجوا إلى التخاطب فى شئونهم مع تنائى أمكنتهم ، وتباعد أوطانهم ، فكان لسان المرسل إذ ذاك لسان البريد ، وما يدريك هل حفظ ما يبدى المرسل وما يعيد ، وإن حفظ هل يقدر على تأدية ما يريد ، بدون أن ينقص أو يزيد ، أو يبعد القريب أو يقرب البعيد ، فكم من رسول ، أعقبه سيف مسلول ، أو عنق مغلول ، أو حرب تخمد الأنفاس ، وتعمر الأرماس ، ومع ذلك كان خلاف المرام ، ورمية من غير رام ، فالتجأوا إلى استعمال رقم القلم ، ووكلوا الأمر إليه فيما به تتكلم» .

فما ترى فى أسلوب الشيخ غير أنه يعترك فى غير ميدان ، فيتحدث عن فضيلة الكتابة بالقلم كأنها من الخفاء بحيث ينبه عنها فى مقال سيار ، يتخذ له من الأسجاع حلى موشاة يظنها تُحدث أقوى الرنين فىالأسماع ، وأعمق التأثير فى النفوس .. لقد كان من حظ الأديب دون نزاع أن يعدل عن أسلوبه هذا عرضًا وتعبيرًا إلى أسلوب إصلاحى حى يتحدث عن ظلم الرعاة وبغى الحاكمين ، قريب من نهج ابن خلدون ، إذ يقول فى العدد الرابع عشر من مجلة العروة الوثقى التى كان يصدرها بباريس مع أستاذه جمال الدين : «إن الأمة ليس لها فى شئونها حل ولا عقد ، وإنما هى خاضعة لحاكم واحد ، إرادته قانون ، ومشيئته نظام يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ، فتلك أمة لا تثبت على حال واحد ، ولا ينضبط لها سير ، فتعتورها السعادة والشقاء ، ويتداولها العلم والجهل ، ويتبادل عليها الغنى والفقر ، وكل ما يعرض عليها من هذه الأحوال – خيرها وشرها – فهو تابع

لحال الحاكم ، فإن كان حاكمها أصيل الرأى ، عالى الهمة ، رفيع المقصد ، قويم الطبع ، ساس الأمة بسياسة العدل ، ورفع فيها شأن العلم ، ومهد لها طريق اليسار والثورة ، وفتح لها أبوابًا للتفنن فى الصنائع والحذق فى جميع لوازم الحياة ، وبعث فى أفرادها المحكومين روح الشرف والنخوة ، وحملهم على التحلّى بالمزايا الشريفة من الشهامة والشجاعة وإباء الضيم ، ورفعهم إلى مكانة عليا من العزة ، ووطأ لهم سُبل الراحة والرفاهية ، وتقدم بهم إلى كل وجه من وجوه الخير . وإن كان حاكمها جاهلاً ، سيىء الطبع ، سافل الهمة ، جبانًا ، ضعيف الرأى ، أحمق الجنان ، خسيس النفس ، معوج الطبيعة ، أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوى الخسران ، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل ، وجلس عليها غائلة الفاقة والفقر ، وجار فى سلطته عن جادة العدل ، وفتح أبوابًا للعدوان ، فيتغلب القوى على حقوق الضعيف ، ويختل النظام ، وتفسد الأخلاق ، وتخفض الكلمة ، ويغلب اليأس ، فتمد إليها أنظار الطامعين ، وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها فى أحشاء الأمة ، عند ذلك - إن كان فى الأمة رمق من الحياة ، وبقيت فيها بقية منها ، وأراد الله بها خيرًا - اجتمع أهل الرأى وأرباب الهمة من أفرادها ، وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة واستئصال جذورها ، قبل أن تنشر الرياحُ بذورَها وأجزاءَها السامة القاتلة بيد جموع الأمة فتميتها ، وينقطع الأمل من العلاج» .

هذا الأسلوب وما جرى مجراه فى الدفاع عن الحرية من أقلام مجاهدة ، تحمل روح ابن خلدون وطابعه ، ولا أعنى بذلك أن ينهج نهجه فى التحليل والاستدلال ، ولكنه يعيش فى جوّه ويستلهمه ، وينطق بأثره الواضح أحيانًا ، والخفى حينًا ، وأنا إذْ أقرر ذلك أُوَجِّهُ النظرَ إلى ناحية مهمَّة من نواحى التأثير الخلدونى ، إذ إن بعض الباحثين يقف بتأثير المقدمة عند الصياغة والتركيب فقط ، ويرى أثرها لا يتعدى التحرر من القالب البديعى ، وهذا غير الواقع ، لأن الأقلام التى اتجهت وجهة الإصلاح السياسى والاجتماعى قد وجدت معينها الدافق فى أفكار ابن خلدون ، وإذا كان قد اشتهر عنه تفوقه فى إدراك حقائق الاجتماع مما يسعف الكاتبين فى إصلاح المجتمع المصرى ، فإن آراءه السياسية لا تقل خطورة عن آرائه الاجتماعية .

وبعبارة أخرى ، فإن الإصلاح السياسى فى منطق ابن خلدون نتيجة من نتائج الإصلاح الاجتماعى ، فكلا الإصلاحين قضية واحدة ذات مقدمة ونتيجة ، ومن الذائع المشتهر أن آراء المفكر العربى فى حقل السياسة والاجتماع قد وجدت من يتحمس لها تحمسًا يصل بصاحبها إلى ذروة العبقرية والإبداع ، حتى اعترف به واضعًا أَوَّلَ لعلم الاجتماع ، وأقيمت الموازنات الطويلة بينه وبين فلاسفة هذا العلم فى أوربا ، إذ قرنه الباحثون بأرسطو وأفلاطون ، وقال عنه (غوميلوفتس) أحد زعماء علم الاجتماع بألمانيا : «إن ابن خلدون يعتبر مفكرًا عصريًّا بكل معنى الكلمة . إنه درس الحوادث الاجتماعية بعقل هادىء رزين ، وأبدى آراءً عميقة جدًّا ، لا أقول قبل (كَانْت) فحسب ، بل قبل (فيكو) أيضًا ، والحقيقة أن ما كتبه ابن خلدون هو ما نسميه اليوم بعلم الاجتماع».

وقال (فارد) كبير علماء الاجتماع الأمريكان : «كانوا يظنون أن أول من قال بمبدأ الحتمية فى الحياة الاجتماعية هو (مونتسكيو)، أو (فيكو)، فى حين أن ابن خلدون قال بذلك وأظهر تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة قبل هؤلاء بقرون ، حينما كان الغرب مستسلمًا للفلسفة الدرسانية والكلمانية استسلامًا تامًّا» .

وليس لى أن أملأ الصفحات بمثل هذه الاعترافات المنصفة التى سجلها مفكرو الغرب – من أمثال استفانو كولوزيو الإيطالى ، ونانانيل شميت الأمريكى ، وتوينبى الإنجليزى – لعبقرية ابن خلدون ، ولا أن أشير إلى المقارنات التى عقدها كبارهم بين ميكيافيلّى ، وأرسطو ، ومونتسكيو ، وبين صاحب المقدمة ، فقد شاعت وذاعت حتى أصبح ترددها المتكرر لا يأتى بجديد ، وإنما أريد أن أقول : إن صاحب هذه العقلية الفذة قد أنقذ الأسلوب الأدبى إنقاذًا ناجحًا حين جعل الفكرة عنصرًا عامًّا من عناصره ، أو حين جعل صاحب القلم مفكرًا ذا رسالة ، وليس صاحب أسجاع ومترادفات ، وقد ظل أثره الأسلوبى فى قومه ضئيلاً لا يكاد يُحَسُّ ، حتى استيقظت العربية من إغفاءتها الطويلة فى نهضتها المعاصرة ، وقُدِّرَ لها أن تحتذى مقدمة ابن خلدون ، فتنتقل من دور إلى دور .

وطبيعى أن جميع الروَّاد فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر لم يكونوا من محتذى أسلوب المقدمة ، بل إن فيهم من لم تظهر على أسلوبه سمة واحدة من سماتها ، كعبد الله فكرى ، وإبراهيم المويلحى ، وحمزة فتح الله ، والنديم ، ولكن صفوة الكتَّاب إذ ذاك كجمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، وأديب إسحاق ، وعبد الرحمن الكواكبى ، قد نشروا أسلوب المقدمة كُلٌّ جهد طاقته .. وكان من حسن الحظ أن يتتلمذ على جمال الدين ومحمد عبده بصفة خاصة أكثر كتَّاب الجيل اللاحق ، فيردوا موردهما ، وينهجوا منهجهما ، وإذ ذاك يقفز الأدب قفزته الطافرة ، ويتحرر الأسلوب نهائيًّا من أوهامه ، وتصدق كلمة أستاذنا السكندرى حين قال : «لم يكن الانتفاع بمقدمته وأسلوب كتابته فى وقت أظهر منه فى العصر الحاضر ، فقد كان أسلوب ابن خلدون هو القدوة الحسنة للمصلحين والمجددين ، فهو الأستاذ الأكبر لكتَّاب الصحف والمجلات فى نهضتنا الأخيرة» .

ويعن لنا أن نسأل فى هذا المجال : لماذا لم يؤثر أسلوب ابن خلدون فى معاصريه كما أثر فى أسلوب الأدب المعاصر؟ والرجل لم يكن خامل المكانة مجهول المنزلة بين قرنائه حتى يفقد تأثيره النفاذ ، بل كان - كما قال عنه منافسه الخطير الوزير الأديب لسان الدين ابن الخطيب فى كتابه «الإحاطة فى تاريخ غرناطة» : «باهر الخصال ، رفيع القدر ، أصيل المجد ، وقور المجلس ، عالى الهمة ، عزوفًا عن الضيم ، صعب المقادة ، قوى الجأش ، طامحًا لفن الرياسة ، خاطبًا للحظ ، متقدمًا فى فنون عقلية ونقلية ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور ، مغرى بالتجلَّة ، فأما نثره فخلج بلاغة ، ورياض فنون ، ومعادن إبداع يفرغ عنها يراعه الجرىء ، شبهة البداءات بالخواتيم ، فى نداوة الحروف ، وقرب العهد بجرية المداد ، ونفوذ أمر القريحة واسترسال الطبع ، وأَمَّا نَظْمُه فقد نهض لهذا العهد قدمًا فى ميدان الشعر ، ونقده باعتبار أساليبه ، فانثال عليه جوه ، وهان عليه صعبه ، فأتى منه بكل غريبة» .

ولعل السبب فى فقد تأثيره إذ ذاك أنه دعا إلى منهج جديد فى التحرر ، وصاحِبُ الجديد مقصىٌّ السبيل ، نائى الإجابة ، إذ إن معاصريه قد درجو على حب الصنعة

والزخرف ، وأصبح الاعتكاف فى البديع لديهم إيمانًا لا يتزلزل ، فهم عن غيره منصرفون ، ولو نادىَ به عملاق خطير كابن خلدون ، لا نقول ذلك فى الأسلوب الأدبى وحده ، بل فى كل منهج جديد فى مختلف العلوم والفنون والآداب ، يفتح العيون على أفاق لم تكتشف بعد. وللتدليل على ذلك نذكر فى تاريخ النحو الأندلسى رجلين كبيرين ، أحدهما مجدد خطير ، وهو «ابن مضاء» القرطبى ، الذى نَادَى بإبطال نظرية العامل ، وذهب إلى أن الذى يسبب الظواهر النحوية - من رفع ونصب وجر وجزم - إنما هو المتكلم نفسه لا ما يزعمه النحاة من الأفعال وأشباهها ، وبين ما جرت إليه نظرية العامل من التعسف فى التأويل ، والشطط فى العلل والأقيسة ، وأكثرها مرفوض ، إنِ استقامَ من جهةٍ تطرق إليه الخلل من جهة ثانية !

وقد ألف فى مذهبه ثلاثة كتب ، منها كتابان كبيران مفصلان طواهما الزمن ، وكتيب صغير ظل مجفو المنزلة حتى عُثرعلى جزء منه فى المكتبة التيمورية ، ونشره الدكتور شوقى ضيف منذ سنوات ! هذا البحاثة المجدد لم يجد من يستمع إلى دعوته الإصلاحية ، أو من ينسخ كتبه فقط للأجيال اللاحقة ، فضاعت صفحاتها بددًا فى خضم الزمن ، لأنه صاحب مذهب طريف .. أما الرجل الثانى فهو ابن مالك الأندلسى (صاحب الألفية الشهيرة) ، فقد كان جَمَّاعًا لآراء النحاة ، حسن الترتيب لما يتناول من القواعد المقررة ، لم يأتِ بجديد فى تحرير مذهب أو تأصيل بحث ، ولكنه قرأ فَوَعَى ، ثم جَمَعَ فَأَوْعَى ، فسارت مؤلفاته النحوية مسيرة الشمس ، وظلت تجتاب القرون منذ القرن السابع الهجرى إلى الآن ، وقد كان الأزهر - ولا يزال - يدرس آثاره فى الأقسام الابتدائية والثانوية والعالية محاطة بالشروح والتقديرات حتى هذه الساعة . فإذا فقد ابن مضاء تأثيره فى معاصريه ، فقد التقى مع ابن خلدون فى العمل والنتيجة ، ومثلهما الكثرة الكاثرة من المجددين الذين دفنتهم أيامهم الجائرة فى حفائر الإهمال ، حتى هبت الريح العاصفة فكشفت التراب عن الذخائر المطموسه وأقبل عليها الراغبون مقدرين .

ويُخيل إلىَّ أن تردد ابن خلدون (قبل تأليف المقدمة) بين الترسل والسجع قد ضاءَل من تأثيره فى معشره ، إذ رويت عنه مراسلات بديعة نحى فيها منحى معاصريه ، وقد

حُفظت عنه وتُعورفت بين الناس ، بل فى تاريخه الكبير كان يميل إلى السجع فى بعض الفقرات على قِلَّة ، واختار لتاريخه أطول عنوان مسجوع لكتاب عرفه القراء ، ونذكر هنا نموذجًا من كتابته المسجوعة فى رسالة بعثها إلى لسان الدين بن الخطيب بدأها بقوله :

«سيدى ، مجدًا وعُلُوًّا ، وواحدى ذخرًا ومرجوًّا ، ومحل والدى برًّا وحنوًّا .. ومازال الشوق منذ نأَت بى وبك الدار ، واستحكم بنا البعاد ، يرعى سمعى أنباءك ، ويخيل لى من أيدى الرياح تناول رسائلك ، حتى ورد كتابك العزيز على استطلاع ، وعهد غير مُضاع ، وود ذى أجناس وأنواع» ... إلخ .

ونحن فى ميزان النقد المخلص لا نُؤاخذ الكاتبَ على التزامه قيود البديع فى مراحله الأولى قبل أن يكون صاحب مذهب يؤثره ، لأن أبعد المتطرفين فى الدعوة إلى الجديد كان يتلقى دراسته الأولى عن النهج الذى نادى بالتخلص منه ، بعد أن فتقت الأيام ذهنه بالتأمل والتمحيص ، فكل ما صدر عنه قبل أن يهتدى إلى منهجه الخاص لا يزحزح من دعوته التجديدية فى عيون الناقدين . ونحن حين نطالع آراء ابن خلدون بالمقدمة فى الأسلوب الأدبى المختار نلمس من ثباته وأصالته وتمكنه ما نعتبره به قائد دعوته ، وحامل راية ، يحاول أن ينقل الكاتبين من مجال إلى مجال ، فهو يقول :

«واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون - يعنى فنون الشعر والنثر - أساليب تختص به عند أهله ، ولا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه ، وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه فى المنثور ، من كثرة الأسجاع ، والتزام التقفية ، وتقديم النسيب بين مدى الأغراض ، والمحمود فى المخاطبات السلطانية ، والترسل ، وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع - إلا فى الأقل النادر - وحيث ترسله الملكة إرسالاً من غير تكلف ، ثم إعطاء الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال ، فإن المقامات مختلفة ، ولكل مقام أسلوب يخصه من إطناب، أو إيجاز، أو حذف ، أو إثبات ، أو تصريح ، أو إشارة، وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذى هو على أساليب الشعر فمذموم ، وما حمل عليه أهل العصر إلا استيلاء العجمة على ألسنتهم ، وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه فى مطابقته لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الكلام المرسل لبُعْدِ أمَدِهِ فى

البلاغة ، وانفساح خطوه فيه ، ويجبرونه بذلك القدر من التزين بالأسجاع والألقاب البديعة ، ويغفلون عما سوى ذلك !

وأكثر من أخذ بهذا الفن وبَالَغَ فيه فى سائر أنحاء الكلام كُتَّابُ المشرقِ وشعراؤه لهذا العهد ، حتى إنهم ليخلُّون بالإعراب فى الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم فى تجنيس أو مطابقة لا يجتمعان معها ، فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويَدَعُونَ الإعراب ، ويُفسدون بِنْيَةَ الكلمة عساها تصادف التجنيس» .

والكاتب الذى يحمل هذه الحملة على «البديع» يفرق فرقًا واضحًا بين البديع المتكلف المستكره ، والبديع الفطرى المطبوع ، فيرى فى الأول ركاكة وإسفافًا ، وفى الثانى جمالاً وإبداعًا ، وإنه ليفصح عن ذلك حين يقول (ببعض التصرف) :

«ويتبع تراكيب الكلام فى هذه السجية ضروب من التزيُّن والتحسين ، فيحصل للكلام لذة ، وجمال زائد على الإفادة ، وهذه الصفة موجودة فى الكلام المعجز ، وفى كلام الجاهلين بعد كمال الإفادة ، لكن عفوًا وبغير تعمد ، وفى كلام الإسلاميين عفوًا وقصدًا ، والمنثور فى الجاهلية والإسلام كان مرسَلاً ، معتبر الموازنة بين جمله وتراكيبه ، حتى نبغ إبراهيم بن هلال الصابى ، فتعاطى الصنعة والتقفية ، ثم انتشرت الصناعة بعده ، والكلام المصنوع بالمعاناة والتكلف ، لقلة الاكتراث بأصل البلاغة ، والحكَم فى ذلك الذوق» .

لقد كان ابن خلدون نابغة عصره بدون نزاع ، ثم قُدِّرَ له أن يقود النهضة الأدبية فى عصرنا الحديث ليصبح فى رحاب التاريخ الأدبى نابغة العصور ! طيب الله ثراه .

★★★